الفكر الإسلامي في السودان

تمثلت بدايات مشروع التدين السوداني مع الخلافة الراشدة ، حيث شهدت وثيقة البقط ، والتي كانت في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان 651 م – بوجود مسجد ابتناه المسلمون في دنقلة العجوز ، واعتلي أول ملك مسلم عرش دنقلة في اواخر القرن الرابع عشر الميلادي ، ثم قامت الدولة السنارية في نهايات القرن الخامس عشر الميلادي – وظهرت مدارس علم وتحفيظ للقرآن مع غلام بن عائد وأولاد جابر ومشاريع علمية في كترانج وقوز العلم والشيخ حسن ودحسونة وادريس ود الأرباب وخوجلي ابوالجاز وارباب العقائد وسوار الذهب ثم بدأ التصوف على يد تلامذة ابوالحسن الشاذلي ثم تاج الدين البهاري مؤسس الطريقة القادرية .

ومهدت هذه الجهود المضطردة والدوؤبة والتي كان اساسها القرآن الكريم والسيرة النبوية ورسالة بن ابي يزيد القيرواني في الفقه ومختصر خليل ومدونات الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية لبدايات بروز فكر سوداني إسلامي عرفاني وحينما نقول فكر سوداني عرفاني فهو خطاب روحي يستلهم روح النص القرآني ولكنه يخاطب الواقع الذي تفك شفرته بالطب النبوي وتأليف الحيران والمديح وكذلك تحديد وضعية الرسول الكريم شعرا ونثرا وتحديد وظيفة الولي الصالح ثم التقعيد للزهد والتامل في مراتب الوجود وهو ما يعرف بالعرفان .

وأول من قعد قواعد العرفان والفكر الصوفي في السودان ، هو السيد أحمد الطيب البشير المولود 1155هـ– 1742 م والمتوفي 1239 / 1824 تقريبا وأنا أكتب من الذاكرة .

ولعل الجغرافيا الروحية لكل السودانيين تأثرت بالمزاج الطيبي وبفكره العرفاني وشعره وروحانياته ومع تراكم المدد المعرفي لأبنائه وأحفاد وتلامذته اصبحت الطريقة السمانية صاحبة أكبر مكتبة عرفانية على امتداد السودان شعرا ونثرا وكما .

ولا تختلف المكتبة العرفانية الصوفية في السودان سواء كانت قادرية أو شاذلية أو تجانية أو ختمية / ميرغني أو مجذوبية إلا مع التفاصيل – ولكن تلتقي هذه الطرق في العرفان.

ولعل تكوين المجتمع السوداني المسلم هو نتاج لتفاعلات وعمل هذه الطرق في المجتمع السوداني .

ومن أقدار الله والطافه أن يزور المدد الصوفي القائم على العرفان والشيخ أو الأمير او رأس الطريقة ثم التكوين التنظيمي القائم على تشعبات من رأس ومقدمين وخلفاء ونقباء وحلق أو مجموعات منظمة بدأت مع هذا الركب قي القرن التاسع عشر الذي يتقدمه الشيخ أحمد الطيب

والسيد محمد عثمان الميرغني والمجذوب الكبير وخلفاء السيد احمد التجاني بالإضافة إلي الطرق المعروفة كالعركيين والمكاشفية وآل الكباشي الخ .

لم يتعرض هذا المزاج العرفاني إلا إلي تحدي الوافد المهدوي ، الذي اراد أن يختزل الفكر العرفاني في الجهاد ونصرة الدين حسب رؤية الامام محمد أحمد المهدي والذي نضج عقله وخبراته في نيران العرفان السماني . ولكن هيهات اصبحت الطريقة المهدوية " الأنصار " إضافة لحركة المدد الصوفي حيث تميزت بعد دولتها وجهادها براتبها وأورادها، إلي أن تم تجديدها على يد السيد / عبدالرحمن المهدي كطريقة روحية" أنصار " وجماعة سياسية تدعو لاستقلال السودان كما هو وارد في نشأة حزب الأمة وخطابه السياسي .

ودخل رافد ثاني مهم في تكوين المزاج الديني السوداني ، وهو الرافد الرسمي المتمثل في إدارة الحكم الثنائي ، التي حافظت على وضعية قوانين الأحوال الشخصية كما في المذهب الحنفي، الموروث عن حقبة الحكم التركي /المصري ما قبل المهدية ، ثم احتضنت حلق مسجد أم درمان العتيق لتكون نواة للمعهد العلمي الذي تطور فيما بعد ليصبح جامعة ام درمان الإسلامية وأسهمت المعاهد العلمية التي قامت في كثير من أنحاء السودان في تخريج أئمة المساجد والوعاظ ومدرسي التربية الإسلامية ورفدت المجتمع السوداني بعقل ديني ملم بالفكر الديني التقليدي مع حفظ القرآن ومثلت المعاهد الدينية حلقة هامة في الفكر التعليمي السوداني ، أي ثنائية التعليم حيث كانت المعاهد العلمية ، قاصرة على علوم الدين التقليدي وعلوم اللغة العربية من تجويد ونحو وصرف وبلاغة مع القراءات في أمهات كتب التفسير والفقه ولكنها كانت محرومة من علوم النهضة الحديثة من فيزياء وكيمياء ولغات وآداب ، ومن قضايا هذا النوع من التعليم إنه يؤسس لثنائية اجتماعية ، تجعل من خريجي هذا التعليم متعلمين من الدرجة الثانية ، مما يؤدي إلي خلق وضعية ثنائية من الدرجة الثانية للعلوم الدينية وهو مما يؤدي إلي تمكين العلمانية واللادينية احيانا.

ثم حل رافد ديني جديد يتمثل في الفكر السلفي ، وهو فكر يتخذ لنفسه خط انتقائي في التاريخ الإسلامي ، ويختزل التاريخ الإسلامي في مرويات الإمام أحمد بن حنبل والإمام ابن تيمية وتلامذته مثل ابن القيم وابن كثير ثم محمد بن عبدالوهاب والمدرسة السلفية المعاصرة في السعودية والخليج واهم روادها بن باز وابن العثيمين وخريجي الجامعات السعودية .

وهذا أدي إلي مجرى جديد في الفكر الديني السوداني اصطدم بالتيار الديني ومرتكزاته العرفانية وتجلياته المجسمة في القباب والضرائح والمزارات والشواهد.

وفـي إطـار هـذا الـتجاذب بـرزت الـمدارس الـحـركـية الـتي تـركـز عـلـى الـخـطـاب الـتربـوي والسياسـي واهمها مدرسـة الإخـوان المسلمين بتشعباتـها المختلفة– وهذه مقالـة مـختصـرة لا تـحيط بـالمنتوج الفكري لهذه المدارس ولكن يمكن للباحثين المجدين النظر والفحص في المكتبة الدينية لكل تيار خصوصا أن لكل تيار كتاباته وشطحاته ، وبعض فيه روح التجديد وبعضه مجرد تكرار لما سبق أن قيل ، ويغيب المنهج العلمي عن الكتابات وللأسف فقد دخلت لغة التكفير في خطاب بعض الجماعات وهو خطاب لم تعرفه الثقافة الإسلامية في عصورها الزاهية والموضوع كبير ومتشعب ويحتاج لمعالجة تفصيلية ودقيقة وما ورد مجرد خطوط والله أعلم

أ.د. حسن مكي محمد أحمد